﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥١﴾ [الشعراء: 50 - 51]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

من آمن بالواحد الدَّيّان؛ لا يُخْضِعه تهديد، ولا يَقْهَرُه سلطان

لمّا أذعن السَّحرة للواحد الدَّيّان، وخالطت قلوبَهم بشاشةُ الإيمان؛ زال عنهم خوف فرعون ذي الجبروت والطُّغيان؛ فلم يعبؤوا بهيبة الملك وأُبَّهة السلطان، وبعدما كانوا يُقسمون بعزَّة فرعون، ويطمعون في أجره ونَواله، صاروا طامعين في مغفرة الحقّ سبحانه، ويسعون إلى جنَّته ورضوانه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾: أصل (ضير) يدلُّ على كلمة واحدة هو من الضَّير والمضَرَّة[2]، والضَّير: المضرَّة والضَّرُّ والضَّرَرُ، يقال: ضارَه يَضورُه ويَضيرُه ضَوْرًا وضَيْرًا، وضارَّه وضرَّه، يقال: لا ضَيْرَ ولا ضَوْرَ ولا ضَرَّ ولا ضَرَرَ بمعنى واحد[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: لا ضَرَّ[4].

2) ﴿مُنقَلِبُونَ﴾: أصل (قلب) يدلُّ على ردِّ شيء من جهة إلى جهة[5]، وقلَبَه يقلِبُه قلبًا، وقَلْبُ الشَّيء: تصريفُه وصرفُه وتحويلُه عن وجه إلى وجه، كقَلْب الثَّوب، وقَلْب الإنسان؛ أي: صَرْفُه عن طريقته، وعن وجهه الذي يريده[6]، والقَلْبُ: مُضْغَةٌ من الفؤاد معلَّقةٌ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 504، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 155، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 36، 37، والمراغي، تفسير القرآن: 19/ 63.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضير).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضير).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضير).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(6) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).

بالنِّياط، وقد يعبَّر به عن العقل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]؛ أي: لمن كان له عقل[1]، وسُمّيَ القلبُ قلبًا لتَقَلُّبِه[2].

وتقليبُ الشَّيء: تغييرُه من حال إلى حال[3]، وقَلَّبَ الأمورَ: بَحَثَها، ونَظر في عواقبها[4]، وتقليبُ اللّهِ القلوبَ والبصائرَ: صرفُها من رأيٍ إلى رأيٍ، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: 110][5]، وتقليبُ اليدِ: عبارةٌ عن النَّدم ذِكرًا لحالِ ما يوجَد عليه النّادِمُ[6].

والانقلاب: الانصراف والرُّجوع مطلقًا، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: راجعون في الآخرة[7]، والمُنْقَلَب يكون مكانًا ويكون مصدرًا؛ مثل: المُنْصَرَف، فيكون المُنْقَلَب: مصير العباد في الآخرة[8].

3) ﴿نَطْمَعُ﴾: طَمِعْتُ أَطْمَعُ طَمَعًا وطَماعيَةً، فهو طَمِعٌ وطامِعٌ: إذا حَرَصَ عليه ورجاه، وأَطعمه فيه غيرُه، والطَّمَعُ: ضدُّ اليأس، وهو نزوعُ النَّفس إلى الشَّيء شهوةً له[9]، ولمّا كان أكثرُ الطَّمَع من أجل الهوى، قيل: الطَّمَع طَبْعٌ ثانٍ، والطَّمَع يُدَنِّسُ الإهاب[10]، ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا﴾؛ أي: نَطمعُ في مغفرتِه، ونرجو رحمته[11].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يزال القرآن الكريم بأسلوبه الماتع وسياقه المتفرِّد يعرض لنا أحداث هذه القصَّة بشكل سريع متتابع؛ حيث يقصُّ علينا في هاتين الآيتين موقف هؤلاء السَّحَرةِ المؤمنين بعد هذا التَّهديد الشَّديد والوعيد الأكيد من فرعون العتيد فيقول - حكاية عنهم، حين وجدوا حلاوةَ الإيمان وذاقوا لذتَه -: لا حرجَ علينا ولا ضررَ من تهديدك ووعيدك فيما يَلحقُنا

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).
(7) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قلب)، وينظر: البغوي، معالم التنزيل: 3/ 266.
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قلب).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طمع).
(10) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طمع).
(11) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طمع)، وينظر: النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 563.

من عقاب الدنيا، فعذابك يزول؛ لأنّا إلى ربنا راجعون، وهو المجازي لنا على صبرنا؛ فنحن نأمُل أن يصفح ربُّنا عن ذنوبنا وخطيئاتنا من الكفر والسِّحر؛ إذ كنّا أوَّل المصدِّقين بعبده ونبيِّه موسى عليه السلام في زماننا هذا[1].

مَـنْ وقَـر في قلبه الإيمان لم يَخَفْ سوءَ العاقبة من أهل الطُّغيان

وترشدُ الآيتان الكريمتان إلى أنَّ مَن يَعْبُدُ الله أو يدعوه مستشعرًا الخوفَ منه والطمعَ في ثوابه وما عندَه من الخير كان الخوفُ والطمعُ جَناحَيْنِ يطيرُ بهما إلى الاستقامةِ وإلى ما ينبغي، وأنَّ قوةَ الإيمان مصدرُ شجاعة خارقة للعادة، بحيث يفرح المؤمن بالموت؛ لأنه يوصله إلى ربه، وترشدُ إلى حُسْنِ الرجاء في الله والطمعِ في رحمته، وفضلِ الأسبقية في الخير[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الآية عن سابقتها:

شِـبْـهُ كـمـال الاتِّـصـال بين الآيات، ووقوعُ الجملة في سياق المحاورات

علَّةُ فصلِ الآية عن سابقتها هو ما بين الآيتين من شبه كمال الاتِّصال؛ إذ هو استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر، فكأنَّما قيل: فما كان جواب السَّحرة لمّا قال لهم فرعون: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؟ فقيل: قالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾.

ولمّا كانت هذه الجملة السّامية واقعةً في سياق المحاورة حسُنَ أن تُفصَلَ عن سابقتها كما هو الشَّأن في المحاورات أن تُبنَى جُمَلُها على الفصل دون الوصل[3].

معنى ﴿لَا﴾ ودلالتها في الآية:

نـفـوْا جنس الضَّرر؛ فما كان وجوده كالعدم فلا خطر

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ﴾ هي التي لنفي الجنس؛ أي أنَّها تنفي خبرها عن جميع أفراد جِنسِ اسمها.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 570 - 571، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، المنتخب، ص: 547.
(2) الشنقيطي، العذب النمير: 3/ 407، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 652.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 55.

ومعنى نفي الضَّير هنا مع توقُّعهم بطش فرعون بهم: أنَّهم يَعْنون أنَّه مهما فعل فرعون بهم من التَّنكيل، فإنَّه لا يعدو أن يكون ضُرَّ لحظة يحصل عَقِبَه النَّعيم الدّائم، فهو بالنِّسبة لما تَعْقُبُه بمنزلة العَدَم، وهذه طريقة في النَّفي إذا قامت عليها قرينة، دلَّت على الإغراق في نفي المذكور وشمول أفراده، ومنها قولهم: هذا ليس بشيء، أي ليس بموجود، وإنَّما المقصود أنَّ وجوده كالعدم[1].

وهذا يصوِّر ما انطوت عليه قلوب هؤلاء المؤمنين بعدما خالطتْها بشاشةُ الإيمان باللّه الواحد الدَّيّان.

دلالة التَّعبير بالضَّير مادَّة وصيغة:

الضَّير: المضرَّة والضَّرر الذي هو سوء الحال، يقال: ضارَه الأمرُ يضوره ويضيره ضورًا وضيرًا؛ أي: ضرَّه[2]، والضَّير أيضًا: الضَّور الذي هو شدَّة الجوع، ومنه التضوُّر: التَّلوِّي والصِّياح عند الجوع، يكون من الذِّئب والكلب والأسد والثَّعلب، والضّورة بالضَّمِّ مِن الرِّجال: القصير الحقير الشَّأن، ومعناه المحوريُّ: فراغُ جوفِ الشَّيء الغَضِّ؛ كجوع الأحياء المذكورة وغيرها، ويلزمُه النَّقص وصِغَرُ الجِرْم[3].

الـضَّـير الـضَّـرر وهو نقص يلزم من التَّضييق

والتَّعبير بالاسم لإفادة معنى الثُّبوت دون نظر إلى زمن، فمتى ما توجَّه إليه نفيٌ فإنَّه ينسحب على جميع أجزاء الزَّمن؛ مبالغةً في النَّفي وتوكيدًا له.

ففي نفي الضَّير في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ﴾ على هذه المعاني مناسبةٌ لمقابلة ما توعَّدَهم به فرعون من الانتقاص منهم بتقطيع الأيدي والأرجل مِن خلاف، ومن التَّضييق بالصَّلب على جذوع النَّخل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 128.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ضير).
(3) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 574، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ضير).

بلاغة الإيجاز بحذف الخبر في: ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾:

في حـذف الخبر تـعـمـيـمُ لـنـفـي الضَّـرر

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ﴾ إيجاز بحذف خبر ﴿لَا﴾ النّافية للجنس للعلم به من سياق الآية؛ لأنَّ التقدير: (لا ضيرَ علينا)؛ وحكمه واضح في الآية السّابقة، فلمّا أُمِن اللَّبْسُ، وفُهِم المراد جاز حذفُه، بل حسُنَ في مثل هذا السِّياق؛ إذ فيه معنى التَّعميم، فكأنَّهم لم ينفوا الضُّرَّ الواقع عليهم من فرعون فحسب، بل نفوا أن يكون لفرعون ضُرٌّ أصلًا، وفي هذا ما فيه من تبكيته برميه بالعجز، واعتزازهم بربِّهم الذي سجدوا له مؤمنين خاضعين.

فلذلك أجابوه بعد ما سمعوا قعقعة هذا الوعيد بقولهم: ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾ وأرادوا لا ضير علينا في قتلك، وحذفوا الخبر ليبقى الجواب كلمة واحدة نافذة، كالسَّهم يَصْمي نَفّاجَةَ فرعون وحُمقَه، ويردُّ عليه إرعادَهُ وإبراقَهُ[1].

وقد ورد النَّفي الشّامل للضَّير عن طريق ﴿لَا﴾ النّافية للجنس، وحُذف الخبر في هذه السّورة؛ إيذانًا بأنَّه لم يَقدر فرعون على عذابهم، تحقيقًا لما في أوَّل القصَّة من الإشارة إلى ذلك بـ﴿كَلَّاۖ﴾ [الشعراء: 15] و﴿مُّسۡتَمِعُونَ ١٥﴾ [الشعراء: 15][2].

أمّا إذا جُهِل الخبر ولم يظهر المراد مع سقوطه تعيَّن إثباته، نحو: لا أحد أغيَرُ من اللّه[3].

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ عن سابقه:

تـعـلـيـل لـنـفـي الضَّـرر، وإجـابـة عـن سـؤال مـقـدَّر

علَّة فصل الآية عن سابقتها هو ما بين الآيتين من شبه كمال الاتِّصال؛ إذ هو استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر، فكأنَّما قيل: فما علَّة عدم مبالاتهم بالموت، وقولهم: ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾ بعد وعيد فرعون

(1) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 278.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 36.
(3) أبو حيان، ارتشاف الضرب: 3/ 1298.

لهم بالقتل والعذاب؟ قيل: هو ما عَرفوه من دار الجزاء وما عند اللّه من نعيم يهون أمامه كلُّ بلاء.

فقولُه: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ تعليلٌ لعدم الضَّيرِ؛ أي: لا ضيرَ في ذلك، بل لنا فيه نفعٌ عظيمٌ لما يحصلُ لنا في الصَّبرِ عليه لوجهِ اللّه تعالى من تكفيرِ الخَطايا والثَّوابِ العظيم.

أو: لا ضيرَ علينا فيما تتوعَّدنا به من القتلِ لأنَّه لا بُدَّ لنا من الانقلابِ إلى ربِّنا بسببٍ من أسبابِ الموت، والقتلُ أهونُها وأرجاها[1].

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتها في الآية:

الدَّلالة على انتهاء الغاية، بعد شمول العناية

الأصل في معنى ﴿إِلَىٰ﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على انتهاء الغاية[2]، وقد أفاد التَّعبير به هنا من قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ نكتة شريفة جليلة، وهي أنَّهم قد بلغوا في حبِّ اللّه تعالى أنَّهم ما أرادوا شيئًا سوى الوصول إلى حضرته، وأنَّه سبحانه وتعالى غايةُ أملهم، ومنتهى رغبتهم، وهذا من شمول عناية اللّه تعالى بهم بعد ما خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وأذهبت أنوارُه ظلامَهم.

دلالة التعبير بالرَّبِّ في قوله: ﴿رَبِّنَا﴾:

إظهار الافتقار لما عند القدير القهّار لمواجهة بطش الجبّار

من لوازم الرُّبوبيَّة: الخَلْقُ، والرِّزق، والتَّدبير، والعناية، والرِّعاية، والتَّربية، والإحسان[3]، فالتَّعبير بالرَّبِّ في هذا المقام أنسب للدَّلالة على ما استشعره القوم من عظيم منَّة اللّه تعالى عليهم إذ لم يأخذهم على كفرهم، بل بعث إليهم مَن استنقذهم به مِن ضلالهم، وحطَم به أصفاد غيِّهم، فهداهم إلى رحابة الإيمان، ورحمة المنّان.

ولمّا كان في قولهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ معنى الدُّعاء الذي

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 243.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزمخشري، المفصل، ص: 380، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 463، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 16.

(3) أحمد الزاملي، الآيات القرآنية الواردة في الرد على البدع المتقابلة - دراسة عقدية: 1/ 194.

يستدفعون به أذى فرعون الذي توعَّدهم بصنوف منه مِن تقطيع وصلب وتقتيل - فقد ناسب كذلك أن يُعبَّر بالرَّبِّ؛ إظهارًا للافتقار لما عند القدير القهّار لمواجهة بطش الجبّار.

نكتة إضافة الرَّبِّ إلى ضمير المتكلِّمين:

تدرُّج في مراتب الإيمان، واحتماء بالرَّبِّ من الظُّلم والطُّغيان

في إضافة الرَّبِّ إلى ضمير المتكلِّمين في قوله: ﴿رَبِّنَا﴾ بيانٌ لكمال إيمانهم، وحُسن خلُقِهم؛ إذ أضافوا الرَّبَّ إلى ضميرهم لا إلى ضمير المخاطَب كما فعلت بنو إسرائيل مع موسى ﷺ لضعف إيمانهم وسوء أدبهم مع الله تعالى إذ قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: 68]، وقالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: 24].

وفي هذه الإضافة أيضًا بيان لزيادة يقينهم وتدرُّج انتقالهم من ضيق الكفر إلى رحابة الإيمان، ومن تعظيم الإنسان إلى توحيد عبادة الدَّيّان؛ ذلك أنَّهم - قبل أن يؤمنوا - أضافوا العزَّةَ إلى فرعون بقولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾، ثمَّ لمّا آمنوا أضافوا الرَّبَّ إلى الرَّسولِ المبلِّغ عنه بقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ثُمَّ لمّا وصلوا إلى ذروة الإيمان أضافوا الرَّبَّ إلى ضميرهم فقالوا: ﴿رَبِّنَا﴾.

نكتة تقديم شبه الجملة على الخبر:

الاختصاص والاهتمام، وبيان لمصير الأنام

قُدِّم شبه الجملة ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ على الخبر ﴿مُنقَلِبُونَ﴾؛ للاهتمام وإفادة الاختصاص والحصر، وأنَّ المصير إنَّما يكون إلى الله وحده، وفيه إيماء إلى أنَّهم لا يبالون بما يفعله فرعون بهم في الدُّنيا؛ لأنَّه لا سلطان له عليهم في الآخرة التي هي خير وأبقى، والمنقَلَب فيها إلى الله وحده، فكان تقديمه لبيان الاختصاص وأنَّهم يرجعون إلى ربِّهم، لا إلى غيره من أشباه فرعون[1].

دلالة توالي المؤكِّدات في الآية:

حَفَلتِ الآية الكريمة بعدَّة مؤكِّدات منها:

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5357.

دخولُ الحرف المشبَّه بالفعل (إنَّ) على ضمير المتكلِّمين: ﴿إِنَّآ﴾، وهو مفيد للتَّوكيد لنيابته منابَ تكرير الجملة مرَّتين، إلّا أنَّه أوْجَزُ وأخصَر مع حصول الغرض[1]، وتقديمُ شبه الجملة ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ على متعلَّقه ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ لإفادة الاختصاص والحصر، والتَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة الدّالَّة على الثُّبوت والدَّوام، ومن ثمَّ كانت آكَدَ من أختها[2].

تـوالي المؤكِّـدات يقتضيه حـال المخـاطَب المنكِر للمسلَّمات

وتوالي هذه المؤكِّدات فيه مراعاةٌ لحال المخاطَب - وهو فرعون - إذ كان منكِرًا لما آمنوا به من البعث والجزاء، فردّوا على إنكاره بالتَّأكيد.

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ عن سابقه:

كـمال الاتِّـصال أو شبهه بزيادة البيان والتَّفصيل

فُصِل قوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ عن سابقه لما بين الجملتين الكريمتين من كمال الاتِّصال أو شبهه؛ إذ إنَّ الثّانية واقعة موقع التَّعليل الثّاني أو البدل من جملة التَّعليل[3].

فجملة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ بيانٌ للمقصود من جملة: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ وتعليل لها[4]؛ أي: إنَّك إنْ قتلتنا انقلبنا إلى ربِّنا انقلاب مَن يطمع في مغفرته ويرجو رحمته؛ لما رزقنا من السَّبق إلى الإيمان[5].

فإذا كان المرجع إلى الله ﷻ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ولا يخفى عليه ما فعلتَ بنا، وسيجزينا على ذلك أتمَّ الجزاء فـ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾، ولكوننا نؤمِّل أن يغفر لنا ربُّنا هذه الخطايا وما فعلناه من السِّحر، واعتقدناه من الكفر فإنَّه ﴿لَا ضَيْرَۖ﴾ علينا، ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ [طه: 72][6].

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 526.
(2) جامعة المدينة، البلاغة، المعاني: 1/ 305.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 75.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 128.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 313.
(6) المراغي، تفسير القرآن: 19/ 63.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿نَطْمَعُ﴾:

في المضارع تصوير للحال واستحضار، وإفادة للتَّجدُّد والاستمرار

يفيد التَّعبير بالمضارع الدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار، وقول المؤمنين: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾، يُفيد مع استحضار الحال تجدُّد حدوث الطَّمع مرَّة بعد مرَّة؛ أي: إنَّ طمعهم في مغفرة الله تعالى أمر متجدِّد غير منقطع إلى يوم القيامة.

فكأنَّهم خافوا أن يتجدَّد منهم ذنب، فعبَّروا بما يفيد تجدُّد الطَّمع لتكون التَّوبة - التي ذاقوا حلاوتها - مصاحِبة لهم وملازِمة.

فائدة التَّعبير عن رجاء المغفرة بالطَّمع:

إطلاق الطَّمع على الرَّجاء تأدُّب مع ربِّ الأرض والسَّماء

الطَّمَع: نزوع النَّفس إلى الشَّيء شهوةً له، ورجاء في القلب له قويٌّ مع رغبة شديدة في ضمِّه[1].

ويُطلق الطَّمع كذلك على الظَّنِّ الضَّعيف، وعُرِف بطلب ما فيه عُسر، ويُطلق ويُراد به الظَّنُّ كما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: 82]، فهذا الإطلاق تأدُّب مع الله تعالى لأنَّه يفعل ما يريد[2].

وفي قوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ ذَكَر المؤمنون طمعَهم في غفران ربِّ العالمين، ولم يذكروا تأكُّدَهم منه؛ لأنَّ شأن المؤمن الذي يذكر سيئاته أن يرجو ولا يطمع، ويخاف ولا يتأكَّد.

ولتذكُّرهم ما أخطؤوا به في جنب الله سبحانه لم يذكروا في طمعهم إلّا أن يغفر لهم خطاياهم، وهي الآثام التي استغرقت النَّفسَ حتى امتلأت بالباطل!

وأيُّ خطيئةٍ أعظمُ مِن أن يعبدوا فرعون وهو الجبّار حتَّى طمِع فيهم وأذلَّهم، وأذلَّ أرض مصر ومَن فيها[3]؟!.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طمع).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 129.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5357.

كما أنَّ في التَّعبير بالطَّمع إشارةً إلى أنَّ جميع أسباب السَّعادة إنَّما هي من الله تعالى، فكأنَّه لا سبب منهم أصلًا[1].

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليّ في قوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾:

أفاد التَّعبير بالمسنَد الفعليِّ في قوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ تقوية المعنى وتوكيده، وذلك لما فيه مِن تكرار الإسناد، فإنَّ الفعل ﴿نَطْمَعُ﴾ مسنَدٌ إلى ضمير المتكلِّمين: ﴿إِنَّا﴾، ثمَّ إنَّ فيه ضميرًا مستترًا يعود أيضًا على المسند إليه الذي هو ضمير المتكلِّمين: ﴿إِنَّا﴾.

توكيد الحكم بتكرار الإسناد لتقويته بيانًا لشدَّة طمع المؤمنين في مغفرة الله

وفي تَكْرار الإسناد توكيد له؛ فكأنَّه ذكر الفعل مرَّتين، مرَّة عند إسناده إلى ضمير المتكلِّمين، ومرَّةً عند إسناده لفاعله[2].

وتقوية الحكم هنا وتوكيده ممّا يناسب المقام الشَّريف الذي يقرُّ فيه المؤمنون بشدَّة طمعهم ورجائهم لمغفرة ربِّهم، فجاء الحكم فيه مقوًّى مؤكَّدًا.

غرضُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل دون الصَّريح:

يفيد المصدر المؤوَّل الدَّلالة على الزَّمن لاشتماله على الفعل، وهو مع (أنْ) يدلُّ على مجرَّد معنى الحدث دون احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي (أنْ) تحصين مِن الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال، وليس في المصدر الصَّريح من هذا شيء[3].

الإيماء إلى تجدُّد المغفرة احترازًا مِن غلبَة النَّوازع

وعُبِّر بالمصدر المؤوَّل دون الصَّريح في قوله: ﴿أَن يَغْفِرَ﴾ للإيماء إلى ما يقتضيه ذكر الفعل المضارع مِن الدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار، فكأنَّهم قالوا: إنّا نطمع في حصول مغفرةٍ مِن الله تعالى تتجدَّد كلَّما أحدثْنا توبةً بعد حدوث ذنب، وهذا احتراز بديع.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 36.
(2) حسن طبل، علم المعاني، ص: 125.
(3) السامرائي، معاني النحو: 3/ 147 - 149.

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَنَا﴾:

الاختصاص؛ إشعارًا باستعظامهم ذنوبهم، وتشوُّقهم لمغفرة ربِّهم

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص[1]، وهو المراد هنا فكأنَّهم طلبوا أن يخصَّهم الله تعالى بمغفرة عظيمة تُذهب ما تقدَّم مِن خطاياهم التي وقعوا فيها قبل الإيمان، كعبادة فرعون، وكتعاطي السِّحر الذي أكرههم عليه الملعون[2]، وفي قولهم ﴿لَنَا﴾ تبكيت لفرعون بذكر اختصاصهم بالمغفرة دونه، وأنَّه محروم منها.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿لَنَا﴾ على الفاعل:

الاهتمام، طمعًا في مغفرة ربِّ الأنام

قدِّم شبه الجملة ﴿لَنَا﴾ على الفاعل ﴿رَبُّنَا﴾ في جواب السَّحَرة في قوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾؛ لأجل الاهتمام بحصول المغفرة لهم إيماءً باستعظامهم جُرْمَهُم، واستشناعهم خطأَهم، فكأنَّهم مِن فرْطِ خوفهم من أن يَحِلَّ عليهم سخطُ ربِّهم، وخجلِهم مِن حِلمه سبحانه عليهم لم يعودوا يرون إلّا جَريرَتَهم في عبادة غيرِ الله العظيم شاخصةً أمام أعينهم، آخذةً في التَّعاظم، وكأنَّما هم في عَرَصات القيامة مساقون للحساب، فقدَّموا ضميرهم إذ الموقف موقف أَثَرَةٍ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: 34 - 37].

عِلَّةُ إضافة الرَّبِّ إلى ضمير المتكلِّمين في قوله: ﴿رَبُّنَا﴾ وإعادته:

في الإضافة اعتزاز واهتمام بمعيَّة ذي الجلال والإكرام

أُضيف لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المتكلِّمين في قوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا﴾؛ لبيان كمال درجة الإيمان مع إظهار الافتقار للكريم المنّان؛ إذ أضافوا الرَّبَّ إلى ضميرهم؛ اعتزازًا بإيمانهم، وتلذُّذًا بطيب نشوته، واعتصامًا بقدرة الله وعزَّته، بعدما أقسموا بعزَّة اللَّعين

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.
(2) طنطاوي، الوسيط: 10/ 248.

في مواجهة رسول ربِّ العالمين، ففي إعادة تلك الإضافة الشَّريفة - بعدما تقدَّمت آنفًا في قوله: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ - توكيدٌ لذلك المعنى وبيانٌ لما هم عليه من الاعتزاز بتلك الإضافة، والاستئناس بهذا القُرْب، فما شيءٌ كذوق لذَّة الإيمان من بعد عَلْقَمِ الكُفْران!.

سرُّ التَّعبير بالخطايا دون غيرها ممّا قاربها:

دلالة على عدم تعمُّد ما يَشين، فقد كانوا على ممارسة السِّحر مكرَهين

الذُّنوب تكون فيما له تبِعة؛ لأنَّها مأخوذة مِن ذَنَب الشَّيء؛ أي: ذيله ومؤخَّرُه[1]، **والخطايا** تكون فيما لا يكون مقصودًا إليه في نفسه؛ لأنَّها مأخوذة من الخطأ الذي هو وقوع خلاف ما أُريد له أن يقع[2]، **والمعاصي** تكون لما فيه خروج عن الطّاعة بتمنُّع وعدم انقياد؛ لأنَّها مأخوذة من العصا، وهي العود[3]، **والسَّيِّئات** تكون فيما فحُشَ وقَبُحَ؛ لأنَّها مأخوذة من السّوء، وهو العيب والنَّقص وكلُّ ما يغمُّ الإنسان مِن الأمور الأخرويَّة والدُّنيويَّة[4]، **والآثام** تكون فيما أبطأ بصاحبه عن الثَّواب وفعل الخيرات؛ لأنَّها مأخوذة من قولهم: (ناقة آثِمَة)؛ أي: بطيئة متأخِّرة[5].

فيُستفاد ممّا سبق أنَّ الخطيئة تغلب فيما يُقصد بالعَرَض؛ لأنَّه من الخطأ[6]؛ ومن ثَمَّ فالسِّرُّ في التَّعبير بالخطايا دون غيرها في قوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ أنَّه الأنسب لحال السَّحرة؛ إذ في لفظ الخطيئة دلالة على عدم القصد للفعل بذاته، وأنَّهم كانوا مكرَهين عليه لا مختارين له، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى في موضع سورة طه: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ [طه: 73].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ذنب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خطأ).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عصا).
(4) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سوأ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أثم).
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/ 90.

ولم يعبَّر بالذُّنوب؛ لأنَّ تبعة إتقانهم فنَّ السِّحر هي وقوفهم على صدق الآية التي جاء بها نبيُّ الله موسى عليه السلام؛ إذ علموا أنَّها ليست مِن جنس سحرهم الذي أتقنوه.

ولم يعبَّر بالمعاصي لأنَّهم كانوا مؤمنين بفرعون منقادين له، ولم يشقّوا عصا طاعته، ولم يكونوا يعرفون ربَّ العالمين، فيقال إنَّهم عصَوْا أمره إليهم.

ولم يُعبَّر بالآثام؛ لأنَّ ممارستهم السِّحرَ لم تُبْطِئْهم عن الإيمان بالله ربِّ العالمين، بل كانت سببًا في أن يؤمنوا إذ وقفوا بهذا العِلم على صدق نبيِّ الله موسى عليه السلام.

ولم يعبَّر بالسَّيِّئات لأنَّهم لم يكونوا يرون فِعْلَهم عيبًا يُتوارَى منه، بل كانوا يرونه مصدر فخر لهم، بل كان ذريعة لأنْ يَعِدُهم فرعون بالإدناء، وجزيل العطاء، فكان أنسب تعبير هو ما قيل، فلله درُّ التَّنزيل!.

نكتة مجيء الخطايا جمع تكسير:

أوثِر التَّعبير بجمع التَّكسير في قوله: ﴿خَطَٰيَٰنَآ﴾؛ لأنَّها من صيغ جموع الكثرة[1]، ولم يقولوا: (خطيئاتنا) التي تدلُّ على القِلَّة[2]؛ إيماءً باعترافهم بكثرة أخطائهم، وإقرارهم بعظيم ذنبهم، الذي يلزم منه عظيم الطَّمع في مغفرة الرَّبِّ الكريم.

أغلب صيغ جموع التَّكسير تفيد معنى التَّكثير

وجهُ إضافة الخطايا إلى ضمير المتكلِّمين:

أُضيفت الخطايا إلى ضمير المتكلِّمين في قوله: ﴿خَطَٰيَٰنَآ﴾ - وهي إضافة محضة - لإفادة التَّعريف[3]، وفيها بيان اعترافهم بالذَّنب، ونِسبتِه إلى أنفسهم، وأنَّه ممّا كَسَبَته أيديهم، وهذا الإقرار هو أوَّل معارج التَّوبة.

التَّعريف والإقرار، وهو أوَّل معارج التَّوبة والاستغفار

(1) الحملاوي، شذا العرف، ص: 92.
(2) الرضي، شرح شافية ابن الحاجب: 2/ 183.
(3) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/ 73.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لقوله: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

﴿أَن﴾ وما في حيِّزها في تأويل مصدر في موضع جرٍّ باللّام المحذوفة متعلِّق بـ﴿يَغْفِرَ﴾، وتقدير القول: لِأَنْ كنّا أوَّل المؤمنين؛ أي: لكوننا أوَّلَ المؤمنين[1]، ويجوز أن يقدَّر باء السَّبب: بأن كنّا؛ أي: بسبب أن كنّا[2].

الجرُّ بحرف محذوف، أو النَّصب على نزع الخافض، أو على المفعول له

ويجوز أن يكون النَّصب على نزع الخافض[3]، أو حملًا على المفعول لأجله، والتَّقدير: (كونَنا أوَّل المؤمنين؛ بمعنى: لأجل كوننا أوَّل المؤمنين)[4].

و(كان)، واسمها، و﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خبرها؛ أي: أوَّل مَن آمَن مِن رعيَّة فرعون[5]، وجملة ﴿كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ صلة الموصول الحرفيِّ ﴿أَن﴾ لا محلَّ لها[6].

والحاصل أنَّهم علَّلوا طمعَهم في مغفرة ربِّهم بأنَّهم كانوا أوَّلَ المؤمنين بالله بتصديق موسى عليه السلام، وفي هذا دلالة على رسوخِ إيمانهم بالله ووعده[7].

دلالة التَّعبير بفعل الكون ماضيًا:

توكيد الإيمان برسوخه في الجَنان؛ للثَّبات في مواجهة الطُّغيان

أفاد التَّعبير بفعل الكون ماضيًا في قوله: ﴿كُنَّآ﴾ دلالة التَّوكيد بأنَّ الإيمان صار كونًا مثبتًا راسخًا فيهم، حتَّى صار لهم كالجِبِلَّة[8].

وفيه إشارة إلى أنَّ الكفر الذي كانوا عليه لم يكن طبعًا لهم، وإنَّما أكرههم عليه فرعون إكراهًا، فلمّا عرضت لهم أنوار الإيمان أجْلت من قلوبهم صدأ الكفر وصداه.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5357، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 75.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 75.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 75.
(4) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 8/ 191.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 75.
(6) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 8/ 191.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 129.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 36.

معنى التَّعبير بالأوَّليَّة في قوله: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

الأوَّلـيَّـة مقيَّدة بـأهـل الـزَّمـان أو المـشـهـد أو صناعة السِّحر

الأوليَّة في قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أوليَّة مقيَّدة؛ إذ كانوا أوَّل جماعة مؤمنين من أهل زمانهم، أو من رعيَّة فرعون، أو من أهل المشهد[1]، أو مِنَ السَّحَرة خاصَّةً[2]، أو أوَّل المؤمنين عند ظهور الآية ممَّن كان في جانب فرعون[3]، أو أوَّل مَن أظهر الإيمان بالله تعالى وبرسوله عند فرعون كِفاحًا بعد الدَّعوة وظهور الآية[4].

معنى (أل) في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

(أل) عـهـديَّة؛ نـظـرًا لتقييد الأوَّليَّة

(أل) في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ للعهد؛ وذلك لأنَّ الأوَّليَّة في الآية أوَّليَّة مقيَّدة، ولا يصحُّ أن تكون للجنس لأنَّهم مسبوقون بمؤمنين كُثُر.

بل كيف تكون للجنس وفيهم نبيُّ الله موسى ونبيُّ الله هارون عليهما السلام، وقبلهم خلْق من الأنبياء والمرسلين، ومَن تبعهم من المؤمنين الصّالحين؟!.

سرُّ التَّعبير بالإيمان دون الإسلام:

الإيـمـان إسـلام وزيـادة، إذ هو تصديق وعبادة

يدور الإيمان حول معنى التَّصديق والاطمئنان، ويدور الإسلام حول معنى الانقياد والاستسلام.

فالتَّعبير بالإيمان يدلُّ على خضوع القلب مع انقياد القالَب؛ ولذا كانت مرتبته أعلى من مرتبة الإسلام الذي يغلب أن يكون منصبًّا على أفعال الجوارح، فالإيمان إسلام وزيادة.

ومن ثمَّ كان التَّعبير بلفظ الإيمان هنا أنسب؛ لدفع توهُّم أن يكون السَّحرة قد أُكرِهوا على الخضوع لموسى عليه السلام كما أُكرِهوا على ممارسة السِّحر من فرعون، دون أن يحصل منهم رضا قلبيٌّ بذلك،

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 313.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 504.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 99.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 80.

بل إنَّهم خضعوا لله ربِّ العالمين بقوالبهم عندما خرّوا ساجدين، وآمنوا بقلوبهم عندما واجهوا طاغيتهم بإظهار تصديقهم بالله تعالى وأسمائه وصفاته.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

في الآية مع كلٍّ من قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: 14].

قبل توجيه المتشابه يَحْسُنُ بنا الوقوف عند المواطن التي اختلف فيها التَّعبير بين آيات المواضع الثَّلاث، وهي على النَّحو التّالي:

أولًا: ذكر لفظ ﴿لَا ضَيْرَۖ﴾ في الشُّعراء دون الأعراف.

ثانيًا: ذكر الانقلاب مسبوقًا بلام التَّوكيد في الزخرف: ﴿لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: 14] دون الموضعَيْن الآخرَين.

فهذان سؤالان يحتاج كلٌّ منهما إلى جوابٍ شافٍ.

أمّا **الإجابة عن السُّؤال الأوَّل** فإنَّه لمّا كان الوعيد في الشُّعراء أشدَّ؛ ناسب مقابلتهم له بعدم التَّأثُّر به في مقابلة ما يرجونه عند الله تعالى[1].

ودليل ذلك أنَّه جاء في الأعراف قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: 123 - 124]، أمّا الشُّعراء فإنَّه قد جاء فيها قوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فجاء بلام التَّوكيد أو القسَم - وجهان - في قوله: ﴿فَلَسَوْفَ﴾، دون الأعراف، كما جيء في الأعراف بحرف المُهلة بعد التَّقطيع وقبل الصَّلب: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [الأعراف: 124]، أمّا في الشُّعراء فقد عطف فيها بالواو بين التَّقطيع والصَّلب: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾، وهذا آكد في الوعيد من سابقه.

كما أنَّ السّورة التي ذُكِر فيها قوله: ﴿لَا ضَيْرَۖ﴾ - وهي الشُّعراء - لم يرد فيها ذِكرٌ لتعذيب فرعون بني إسرائيل، أمّا السّورة التي خلت من ذلك - وهي الأعراف - فقد ذُكِر فيها قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 188.

مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 128 - 129].

والحاصل أنَّه لمّا خلت إحدى السّورتين من قوله: ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾ ذُكِر فيها شيء مِن الضَّرر الواقع بالمؤمنين مِن تعذيب الكافرين إيّاهم، ولمّا ذُكرت في الأخرى جملة ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾ وافقها نظم السّورة فلم يُذكَر فيها شيء مِن الضَّرر الذي أوقعه الكافرون بالمؤمنين.

ويبقى وجه أخير، وهو أنَّه لمّا كانت القصَّة في الأعراف أخصر، وفي الشُّعَراء أكثر بسطًا، حيث ذكر فيها أوَّل أحوال موسى ﷺ مع فرعون إلى آخرها فبدأ بقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ [الشعراء: 18]، وختم بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦﴾ [الشعراء: 66]؛ ومِن ثمَّ وقع في هذه السّورة زوائد لم تقع في سورتي الأعراف وطه، فقد ناسبت الزِّيادةُ موضعَ البسط[1].

أمّا **الإجابة عن السؤال الثّاني** عن سرِّ زيادة اللّام في الزخرف: ﴿لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ [الزخرف: 14] دون الموضعين الآخَرين، فإنَّه لمّا كان قول السَّحرة: ﴿لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ جوابًا لفرعون لمّا توعَّدهم بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ فأجابوه بقولهم: ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾؛ أي: لا ضرر علينا؛ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: إذا فعلتَ بنا ذلك فإنّا منقلبون إلى ربِّنا، ومُجازون على صبرنا، فجاوبوه مُعَزِّينَ أنفسَهم ومتناسين بما ينتظرون من الثَّواب وعظيم الجزاء؛ بسَبْقِهم إلى الإيمان وصبرِهم أنْ فُعل بهم ذلك الامتحان، فليس موضعَ قسَم ولا تأكيد بما هو إخبار عن رجائهم وما ينتظرونه ثوابًا على إيمانهم، فلا مدخل للام التَّأكيد هنا.

وأمّا آية الزُّخرف فمبنيَّة على ما تقدَّمها من الإخبار عن مشركي العَرَب في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٩﴾ [الزخرف: 9]، والمراد بذلك إقامة الحجَّة عليهم في إنكار البعث، فطابق ذلك وناسبه تأكيد قول المؤمنين المقول لهم: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ [الزخرف: 13 - 14]، فأكَّد هذا وضمَّن معنى القسَم[2].

(1) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 129.
(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 375.

وأيضًا لأنَّ كلام السَّحرة حين آمنوا لا عمومَ فيه فناسب عدم التَّأكيد، وأمّا ما في الزخرف فعامٌّ لمَن ركب سفينةً أو دابَّةً، فناسبَه التَّأكيدُ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الانقلاب والرُّجوع:

الرُّجوع مصيرٌ إلى الحال الأولى، والانقلابُ مصيرٌ إلى حالٍ مختلفة

الفرق بينهما أنَّ الرجوع هو المصير إلى الموضع الذي قد كان فيه قبل، أو إلى الحالة الأولى التي كان عليها قبل الحدث؛ أي: نفسها، ويقال: امرأة راجع، أي: مات زوجُها فرجَعت إلى أهلها، والانقلاب: هو المصير إلى نقيض ما كان فيه قبل، أو إلى حالة مختلفة لا تشابه الحالة الأولى التي كان عليها قبل الحدث، ويوضح ذلك قولك: انقلب الطين خَزَفًا، فأما رجوعه خزفًا فلا يصحّ؛ لأنه لم يكن قبل خزفًا[2].

الطَّمع والرَّجاء:

الطَّمعُ أشدُّ من الرَّجاء

الرَّجاء: هو الظنُّ بوقوع الشيء الذي يعتري صاحبه الشكّ فيه، إلا أنَّ ظنَّه فيه أغلب وليس هو من قبيل العِلم.

ولا يقال: أرجو أن يَدخل النبيُّ ﷺ الجَنَّة، لكون ذلك مُتَيَقَّنًا، ويقال: أرجو أن يدخل فلانٌ الجنَّة إذا لم يعلم ذلك[3].

والرَّجاء في اللغة: الأمل نفسه، وفي الاصطلاح: توقُّع حصول محبوبٍ في المستقبل[4]، ويكون بمعنى الخوف، من حيث إنَّ الرَّجاءَ ظنٌّ لا يقين معه، قد يصدق ويكذب، كما هو حال الخوف، فاقترب من معناه[5].

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن: 1/ 411.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 249، والهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 4/ 507.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 244.
(4) الشريف الجرجاني، التعريفات، ص: 109.
(5) محمد ياسين خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 208.

والرجاء وإن كان بمعنى الخوف إلا أنّه لا يخرج عن أصل معناه، مِن حيث إنَّه خوف من فوات محبوب[1].

ووجه ذلك أنَّ الرجاءَ والخوف يتلازمان[2]، فرجاءُ لقاء الله سبحانه وتعالى هو خوفٌ من عدمِ تحصيله، ومِن ذلك الآيات الواردة في رجاء رحمة الله تعالى، فالرجاء فيها خوفٌ من عدم تحصيلها.

وممّا يدلُّ على ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزمر: 9]، فاقتران الحذر مع الرجاء يدلُّ على حالة التأهُّب التي عليها الإنسان، والخوفِ من فوات تلك الرحمة المبتغاة.

ومِن هنا افترق الرَّجاء والطَّمع؛ لِما في الطَّمعِ من اطمئنانٍ أشدّ؛ فهو على درجة أعلى في حسنِ الظَّنِّ بالله سبحانه وتعالى؛ لذا جاء في القرآن الكريم في طمع المؤمنين بغفران الخطايا؛ لأنَّهم وصلوا إلى درجةٍ عاليةٍ من حُسنِ الظَّنِّ بالله ﷻ[3].

والطَّمعُ أشدُّ من الرَّجاء؛ لأنَّ الطَّمعَ تعلُّقُ النَّفْس بإدراك مطلوب تعلُّقًا قويًّا، ولا يَحدث إلا عن قوَّةِ رغبة وشِدَّةِ إرادة[4].

الخطايا والذُّنوب والمعاصي:

الذَّنْب في الأصل: الأخذُ بذَنَب الشَّيء؛ يقال: ذَنَبْتُه، أي: أصبتُ ذَنَبه؛ أي: مؤخَّره، ويستعمل في كلِّ ما يُستوخَم عُقباه اعتبارًا بذَنَب الشَّيء، ولهذا يُسمَّى الذَّنْب تَبِعةً، اعتبارًا بما يَحْصُل من عاقبته[5].

الذَّنْبُ من الأخذ بذَنَب الشَّيء، والخطيئةُ من المجاوزة، والمعصيةُ من عدم الانقياد

أمّا الخطيئة فيدور المعنى المحوريّ لجذرها حول تجاوز الشيء وتعدِّيه وتخطِّيه[6]؛ يقال: خَطِئَ السَّهمُ، أي: لَم يُصِب، أي: تخطَّى

(1) محمد ياسين خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 209.
(2) الراغب، المفردات: (رجو).
(3) محمد ياسين خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 209.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 434، والألوسي، روح المعاني: 1/ 298.
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذنب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خطأ).

الهدفَ وتجاوزه مبتعدًا عنه[1]، والخطيئة من هذا لأنَّها مجاوزة الصواب[2]، وأمّا المعصية فهي مأخوذة مِن: عصى إذا اشتدَّ[3]، والعِصيان أصلُه الصّلابة وعدم الانثناء أو الانقياد[4].

وأكثر ما تقال فيه الخطيئة ما لا يكون مقصودًا إليه في نفسه، بل يكون القصد سببًا لتولّد ذلك منه؛ كمَن يرمي صيدًا فأصاب إنسانًا، أو شرب مُسكِرًا فجنى جناية في سكره، والسبب سببان: سببٌ محظورٌ فِعْلُه، كَشُرب المسكِر وما يتولَّد عنه من الخطأِ غير متجافٍ عنه، وسببٌ غير محظور، كرمي الصَّيد[5].

(1) ابن منظور، اللسان، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خطأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطأ).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/ 261.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عصو).
(5) الراغب، المفردات: (خطأ)، والعسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 221.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 38 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-80-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 38 : المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-80-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»